

دور مصر فى الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية كما يوحى اسمها حضارة المسلمين فى مختلف ديارهم وأوطانهم. أسهم فيها الجميع على تفاوت فى التقبل والعطاء. ولمصر فى هذه الحضارة إضافات جذرية تتمثل فى:

- * العلوم الإسلامية
- * التصوف
- * البيئة الحضارية
- * جمع الحديث
- * الفقه
- * علم القراءات
- * تفسير القرآن
- * الأزهر
- * الفن الإسلامى
- * الادب العربى بشقيه - الفصحى
- الشعبى

- * الوقفة الحاسمة فى المعارك الحاسمة - الصواري
- عين جالوت
- حطين

علامات كبيرة مضيئة لمصر الإسلامية، فى تاريخ الإسلام.

ومع أن الموضوع كبير واسع متعدد الجوانب إلا أنه يحتاج إلى طواف رابط للخطوط العريضة فى حياة مصر وتاريخ الإسلام فى محاولة تعميق وتفسير العطاء المتبادل بينهما

تصح به النتائج حين ترفدها وتوصلها مقدمات دراسة تتعمق الأسباب ولاكتفى بظواهرها حتى ولو قام عليها دليل .

عندما جاء الإسلام، شربته مصر ونمت به ونمته فلم يمح شخصيتها بل أضاف إليها عمقا جديداً، وأضاف لها فضلاً جديداً يوم حملت مسئوليتها في السلم والحرب فدافعت عنه في مواقعه الكبرى، وحمته حضارته التي تهدها هولاكو والصليبيون، فوق ما عملته على أرضها برصيدها الكبير في صناعة الحضارة .

إن إيمان مصر المبكر بالدين ممثلاً في تسابيح إخناتون بل قبل إخناتون بألوف السنين قالت مصر بعودة الروح والحساب والعقاب والجنة والنار وفي معبد الدير البحري لحتشبسوت صورة للجنة كتب تحتها (مكان لا أعداء فيه)

وكثير من قيمها عاش في الإسلام مع غناه الثرى بالمثل الرفيعة والآداب العالية .

اعتزت مصر بالأسرة وأوصى بها الإسلام خيراً حتى أبى عليها التفكك ولو أشركت . يقول عن الأبوين في الحض على برهما في جميع الحالات [وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً] .^(١)

إن من يتأمل حضارتنا على مسار التاريخ يلمح احتفالها الكبير بالباب .. احتفلت به مصر فى قديمها واسلاميتها من إحساسها بما فى الباب من جمع الشمل .. بما فى الباب من (أسرية) . وبعض الفرق الإسلامية تسمى العالم، الباب . فهو يفتح للطالب دنيا العلم .

لقد كرمت حضارتنا الباب بنقشه وتحليته . والزخرفة خبرة ملونة، ومحبة منمنمة .

أكرمت مصر الأم ورفعها الإسلام إلى ذرا عالية . (ووصينا الإنسان بالديه حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير) .

ومن مآثورات مصر:

(لقد أعطيتك لأمك التى حبلى بك، وقد تكبدت فى حملك ثقلاً عظيماً وضعتته بغير عون منى . وظلت ثلاثة أعوام ترضعك، فلما أرسلت إلى المدرسة . كانت تحمل الخبز والخبز من بيتها لأستاذك كل يوم .. لقد شبت الآن واتخذت لنفسك زوجاً وبيتاً، فارح طفلك وربيه كما ريتك أمك، واحذر أن تفعل شيئاً يؤذيها حتى لا ترفع يديها إلى الإله فيسمع شكواها) .

(١) لقمان ١٥

وكرمت مصر الزوجة وجعلها الإسلام سكنا وأمنا. (إذا كنت عاقلا فاجعل لنفسك بيتا. أحب زوجتك كثيرا. وفر لها الطعام والثياب والمظهر. قدم لها الدهانات والعمود، فإن علاج أعضائها الدهانات، أسعدها ما عشت فانها حرث مثمر. لا تكن قاسيا في البيت فهي أسهل قيادا بالاقناع من العنف. أرض حاجاتها... فان ذلك ما سوف يبقها في بيتها).

وأوصى الإسلام باليتيم والفقير وقال الأب المصري: (كن مرضعا للمريض وأبا لليتيم).

ومن الآداب المرعية في مصر القديمة ألا يتقدم المرء من لا ولد له عند ركوب المركب، تأدبا.

أنها رعاية مصر القديمة للأبوة في الحياة، وبعد الحياة.

لقد بنت مصر المساجد على طريقتها في بناء المعابد. فالصحن في المسجد، يقابل بهو الأعمدة في المعبد. والميضة في المسجد تقابل بحيرة الاغتسال في المعبد.. اغتسال وتطهر. في الحالين.

والإسلام رؤيته للإيمان أنه بنيان مرصوص في عملية ربط بين النفس والبناء.. بين العمارة والعمار فجاء توثيقا وتحقيقا لرأيها فيه، كما وثق وحقق رأيها في كثير مما يتعلق بالروح.

ومن الطريف أن مصر قبل الإسلام حرمت لحم الخنزير منذ اتخذ (سيت) هيئة خنزير وفقا عين (حورس) فحرمت الديانة المصرية أكل لحم الخنزير.

وكان المصريون القدماء يعنون بفحص طهارة الذبائح ومطابقتها لمقتضيات الطقوس الدينية.

والطهارة في مصر القديمة كما جاء في كتاب (الحضارة الطبية في مصر القديمة)، (أمر ليس بالغريب خاصة وأنه تابع عقائديا).

كما يقول هذا الكتاب: إن (النظافة كانت عندهم عقيدة قبل أن تكون سبيلا للصحة القومية).

وهكذا كان الإسلام فيه الكثير من مألوف مصر. أو هكذا توصلت مصر بالفطرة السليمة والدفع الحضاري معا إلى كثير من القيم الإسلام فلم يك غريبا أن شرح الله صدرها للإسلام.

لقد وجد الاسلام فى مصر جوا مهيباً. ولأمر ما تأصل الإسلام فى مصر تأصلاً لم يبلغه فى مكان آخر حتى أن مصر هى التى دافعت عنه فى مواقعه الكبرى وقامت له فيها أقدم وأكبر جامعة إسلامية.

لماذا لم ينتشر الإسلام فى أوربا؟.. لأنه واقف على غير أرضه.. ليس له فى أوربا جذور خلقية ومعنوية تمدّه بالنماء بل أن (الفكرة الإسلامية) فى أطراف بعض البلاد الإسلامية تخرج عن جوهرها الأصلي (إلى شيعة وزيدية) - كما ذكر الدكتور جمال حمدان - لعامل البعد واختلاف الرواسب الحضارية والفكرية.

إن مصر التى شعرت قبل غيرها بوازع خلقى، هى أول من بحث عن (الحق والباطل) فى تاريخ الإنسان مما تشهد به مسرحية (منف) فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

وقد طلب الفلاح الفصيح إلى الحاكم أن يفصل بين الحق والباطل بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطئ. وخدم كلمة الموازين كثيراً فى معانى الحق والعدل.

وكانت المرة الأولى التى تذكر فيها الموازين فى تاريخ الاخلاق، وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد العدالة العمياء رمزا للعدل، إلى يومنا هذا.

وفى القرآن الكريم ترد لفظة الميزان والموازين فى الحديث عن الحق والحساب والعقاب والعدل.

(الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) ١٧ ك. الشورى ٤٢

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) ٤٧ ك. الأنبياء ٢١

(والسمااء رفعها ووضع الميزان) ٨ م الرحمن ٥٥

وليس معنى هذا أن الإسلام اقتبس من مصر فكرة الموازين. فالقرآن الكريم كتاب منزل وهو فى الوقت نفسه كتاب يهدى الإنسان فى دينه ودنياه ويروى ظمأ الإنسان إلى العدل والخير فى اسلوب يبدأ بالواقعية وينتهى إلى المثالية.

وقد عرف الصغوة فى أزمنة مختلفة، بالفطرة السليمة ألوانا من معانى الخير والعدل. ومن هنا كان سبقهم إلى الإيمان بالأديان لأنها تعبير عما فى نفوسهم وأفكارهم. وقد سمي الرسول صلى الله عليه وسلم الذين لم يعبدوا الأصنام فى الجاهلية: الحنفاء.

على أن الأديان بعد هذا ليست غايتها الاختراع والابتكار، وإنما غايتها الهداية وإشاعة الخير والعدل والرحمة.

ومن شرف الإنسان أو المكان أن يهتدى في تطلعه إلى السماء.. إلى معان تأتي الأديان فتعززها.

مصر في الإسلام:

دخل العرب مصر في فجر الإسلام فراعتهم مصر. كانت مصر في عين العرب دار الطراز وجزيرة الصناعة (صناعة السفن) التي كانوا يندبونها لها عمالا مصريين في كل ناحية من نواحي المملكة الإسلامية يستوى في هذا العباسيون والفاطميون والأيوبيون. وعلى أكتاف مصر قام للإسلام أسطول، وبأسطول مصر انتقلت إلى الإسلام سيادة الحوض الشرقي للبحر الأبيض يوم أعانته، كدأبها أبدا، في معركة البحرية مع البيزنطيين فخرجت القوة الحاسمة منها لتتهدم أعداءه في موقعة (الصواري) وفي رأيي أن موقعة الصواري أخطر المعارك في تاريخ الإسلام... لأنها أشد خطرا من (حطين) و(عين جالوت) على فدايتهما. وتفسير هذا عندي... أن حطين وعين جالوت دارتا والإسلام راسخ مكين ولو خسرهما، لعوض خسارته بعد أمد طويل أو قصير.. وبالطبع كانت هذه الخسارة ستعوق مسيرته وتثقل كاهله ولكنها في النهاية خسارة يمكن امتصاصها ثم الاستعلاء عليها ثم النصر في النهاية بإمكاناته الوفيرة في مجموع بلاده وأقطاره.

ولكن موقعة الصواري كان الإسلام حديث عهد بالظهور حديث عهد بالدولة والحكم فلو أنه خسرها لانقض عليه أعداؤه من الروم وغيرهم وأجهزوا عليه. وقد عرفوا كيف يصيبون مقتلا يوم اختاروا البحر مسرحا للمعركة. فالعرب في ذلك التوقيت لاخبرة البتة عندهم بالبحر وركوبه بله الحرب فيه. وهنا يتجسد البعد الخطير لوقعة مصر في موقعة الصواري.

ولهذا السبب بدأت بها البحث لأنها في رأيي لولاها ماتت الإنجازات الأخرى.

وفي سنة ٦٥٨ هـ وقتت مصر وقتها في (عين جالوت) للتتار الذين اجتاحتوا بغداد / وحران / والزها / وديار بكر: ثم جاوزوا الفرات واستولوا على حلب / وعاثوا فيها (وجرت الدماء في الأزقة) كما يقول المؤرخون.

قاتلت مصر القطار دفاعا عن المنطقة كلها وأوقفت زحفهم بل استولت على ذخائرهم وسحقتهم فحفظت بهذا الحضارة الإسلامية كما أنقذت الحضارة بعد هذا في حطين.

وفى القرن الرابع عشر الهجرى أو العشرين الميلادى واجهت مصر النار والدمار والحروب والتتار الجدد من كل لون وجنس ولكنها انتصرت وهو نصر للعرب والإسلام.

وكما خرجت السفن من مصر لنجدة العرب فى موقعة (الصواري) خرجت السفن المصرية للرد على الصليبيين إذ أرادوا قطع الطرق التجارية عن الشرق العربى، كما خرجت الجيوش المصرية لدحرهم فى حطين.

مصر والعلوم الإسلامية

مدرسة مصر

وبعد أن استقر الفتح العربى، أكب المسلمون على مدينة الاسكندرية إذ بهرتهم بدورها فلسفة «الشيخ اليونانى» كما يدعوها الشهرستانى، أى أفلوطين المصرى الصعيدى وليس اليونانى كما ظنوا ينقلون وينقلون.

وفى الجغرافية والفلك والكيمياء التى كانوا يسمونها «علم الصنعة».. والرياضة والطب عكفوا على الاسكندرية ينقلون وينقلون حتى لتعد كتب جالينوس فى الطب وكتاب المجسطى لبطليموس مما ترجمت مدرسة حنين بن اسحق من دعائم النهضة العلمية فى العالم الإسلامى.. ولكنهم أمام «أنطونينس» حاروا، وأمام ديسكوريدس النباتى المصرى المعروف، فوجدوا المخرج من حيرتهم ان يقتنصوا كتاب (خواص العقاقير) ليصوروه فى العراق.

وكم عمرت خزائن بغداد بنفائس الاسكندرية (ابن أبجر الكنانى) و(سرجيوس الرسعنى) ثم حنين بن اسحق العبادى وإن كان نسطوريا. وقد نقل لهم فيما نقل عنا، علومنا فى الهندسة والطبيعة.

وكتاب الخوارزمى «السند هند» خلاصة لآراء كلوديوس بطليموس الاسكندرى كما كانت جهود بطليموس و(اراتو) الاسكندريين أساسا لكل مباحث العرب فى علمى الفلك والهيئة. وعنهم ترجم إلى اللاتينية والإغريقية حيث كان ركيزة لعلم الفلك الحديث. وتجمع للعرب من التلقى والنقل والترجمة مادة على أساسها بنوا حركتهم العلمية.

مصر والتصوف:

ومن مصر استمد العرب روح التصوف والروحانية وعليها اعتمد كتاب (الشفاء) لابن سينا. فقد كانت مصر بأفلوطين وراء التصوف الإسلامى، وهو منبع ثرى من منابع الأدب العربى، تماما كما كانت وراء (الميتافيزيقا) المسيحية. كانت نظرية أفلوطين فى قدم الله وصدور العالم عنه وراء نظرية المسلمين المشهورة (العقول العشرة) أو (الوسائط العشرة) كما كان أسلوبه فى الامتزاج بالله وراء نظريتهم فى الاتصال بالخالق وان اختلفت الوسيلة.

ومن عمل الشخصية المصرية فى التصوف، إرساء قواعده وبلورتها، إذ نهج له ذو النون المصرى وصيره مذهباً بما استحدث فيه من تحليل وتعليل وتأويل وتصنيف للأحوال والمقامات وما نزع إليه من منازع روحية ومعارف ذوقية مما سنفصله بعد قليل ولو بعض تفصيل.

إن الطرق الصوفية لم تؤسس إلا فى مصر، سواء ولد أصحابها بها أم دخلوها للاستقرار والعيش المادى والأدبى.. حتى الطرق التى ولدت خارج مصر ترعرعت بها هى وتبلورت وتكيفت بجوها العقدى حتى غدت بها خلقاً جديداً والمثل عندى (الطريقة الرفاعية) التى اتسمت فى مصر بمجاهدة النفس وأداء الطفوس، والترنم بالصلوات ثم الرجوع إلى (الشيخ) شيخ الطريقة كأنه الكاهن الأكبر.

لقد نشأت هذه الطريقة فى العراق ولكنها عرفت فى مصر، وعلى نحو يختلف عما عرفت عليه فى العراق. وهذا يسلمنا إلى طابع مصر الذى تجلى فى التصوف كغيره من ألوان التفكير والتعبير وهو حب الوضوح والاستقامة والبساطة والتعاليم الواضحة.

ومما يثير الدهشة، ويدعو إلى التعجب ما ذكره صاحب درة الأسرار فى هذا الصدد عن السبب المباشر فى ارتحال الشاذلى من تونس إلى الشرق. وإليك ما ذكره فى هذا الشأن نصاً قال:

(رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى ياعلى: انتقل إلى الديار المصرية ترى فيها أربعين صديقاً. وكان فى زمن الصيف وشدة الحر فقلت: ياسيدى يارسول الله الحر شديد فقال لى أن الغمام يظلك فقلت: أخاف العطش فقال لى: إن السماء تمطركم فى كل يوم امامكم فقال: فأمر أصحابه بالحركة وسافر متوجهاً للديار المصرية).

إنها مصر ظل وري وصديق.. إنها مصر حلم المتصوفة المبارك.

وعلى بن محمد الغرناطى انتهى به المطاف إلى المقام فى الاسكندرية...

وعن أبى الحسن الصباغ المصرى القوصى أخذ ابن عربى نظرية وحدة الوجود... وكان الصباغ أستاذا تتحلق حوله الندوة.. وقد اشتهر بالعمق فى التصوف والريادة فيه امتدادا لأستاذ آخر مصرى كان فى القرن السادس الهجرى أشهر رجال التصوف وأعلامهم قدرا.. ذلك عبد الرحمن القناوى..

ومصر هى صاحبة فن (الحقيقة المحمدية) فى الأدب الصوفى وهرفن
-كما يقول الدكتور على صافى حسين- (لم يكن له قبل القرن السابع الهجرى وجود كما أننا لم نظفر رغم طول البحث وكثرة التنقيب بقصيدة أو مقطوعة وردت فى هذا المعنى على لسان شاعر شرقى أو غربى، ممن كانوا يعيشون فى القرن السابع الهجرى، وأما الذين نظموا بعض قصائدهم فى هذا الفن من غير المصريين فإنهم لم ينشئوا قصائدهم تلك إلا بعد أن جاءوا أرض مصر واستقروا بها مدة جعلتهم يتأثرون بشعراء هذا الفن من صوفية المصريين وبالتالي ينظمون فيه على غرارهم عددا من قصائدهم...).

* * *

وضعت مصر للتصوف الإسلامى أسسا، كما أشرنا، على يد ذى النون الذى تقول عنه المصادر الإسلامية ومن بينها الرسالة للقشيري، والطبقات للشعرانى، والكواكب الدرية للمناوى، وولية الأولياء لأبى نعيم الأصبهاني واللمع للسراج الطوسى وكشف الحجب للهجویری وكذلك الرازى والترمذى.. إنه وحيد دهره علما وعبادة وحالا، ومعرفة وأدبا.

وإنه: هو رأس هذه الفرقة - الصوفية - فالكل قد أخذ عنه، وانتسب إليه، وقد كان المشايخ قبله. ولكنه أول من فسر إشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق.

ويقول الباحثون المحدثون ومن بينهم ماسينيون وبركلمان عن هذا المصرى هو أحمق رجال الصوفية - على الاطلاق - بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف ويعدونه بحق واضع الحجر الأساسى فى صرح التصوف التيوزوفى الإسلامى.

وتأثيرات (ذى النون) فى التصوف كانت جذورها تضرب فى بيئة مصر، فقد كان يقول الأستاذ الخولى كثير الملازمة لبريا أخميم لأنها بيت من بيوت الحكمة القديمة - فيما يقول القدماء - كما يقولون أيضا: إنه قد فتح على هذا الاخميمى علم ما فيها من كتابات .
وسواء أصح هذا أم لم يصح فإن الوراثة المصرية فى الفكر والعقيدة قد لعبت دورها فى حياة ذى النون وفى أسلوب تفكيره .

وذو النون كانت عبادته لله حبا خالصا لا رهبة ولا رغبة بل محبة وشوقا وهيمانا وكأنه اخناتون فى سبحاته . وذو النون (أول من أنشد شعر الحب الإلهى وأول من وردت فى شعره مصطلحات الصوفية كما أنه أول من تحدث فى الأحوال والمقامات) .

كل هذا فى سلاسة وعذوبة تسرى إلى النفس فتأسرها حين كان شعر أبى على الروزىادى يشق فهمه ويتطلب الوقوف على مصطلحات الصوفية لإدراكه .

ويذكر الدكتور محمد كامل حسين أنهم ينسبون إلى ذى النون أنه (أول من وسع الكلام عن الولاية، وبحث، من أيهم أفضل النبى أم الولى، وينسبون إليه كذلك أنه أول من استخدم اصطلاح الابدال، وأنه أول من فصل مسألة المعرفة، إلى غير ذلك من الآراء الصوفية فى العصور الوسطى حتى يومنا هذا) .

* * *

وبعد ذى النون أعطت مصر للتصوف الإسلامى (ابن الفارض) الذى جعله نيكلسون لا يقل عظمة فى شعره عن شعراء هذا اللون فى العربية هو والتسترى مقابلين فى الفارسية الجلال الرومى والطارق .

وعلى طريقة ذى النون فى الحب الإلهى .. وعلى طريقة مصر فى الخلود الى الصحارى والتجرد والذكر والتأمل والوصول إلى الحقيقة وصل ابن الفارض وكانت القطبانية أو الولاية قبله تؤخذ بالعهد أو الاجازة أو لبس الخرقه .

وابن الفارض فيه من مصر رقة الإحساس وشفافيته، وهو بهذه الصفة سلطان العاشقين ومصر بهذه الصفة فيه صاحبة فن فى التصوف ورفه حضارى، ولم

يعرف عن غير ابن الفارض أنه احتشد للغناء وألوان الفن حتى لينشد أشعاره إنشادا من ولعه بالنغم والتطريب.

ولم يعرف عن غير ابن الفارض أنه غنّته الجوارى فطرب حتى رقص على دقات الدفوف وأنات الشبابه.

وكان ابن الفارض كالنموذج العام للمصرى، مطبوعا على الجمال ذواقة له، فقد ذكر المناوى فيما ذكر عنه أنه كان يخرج وقت الأصيل إلى الروضة يتأمل انعكاسات الأشعة على صفحة النيل الجميل الذى كان يهوى الخلود إليه فى المساء.

حتى أسلوبه نابع من مصر.. من مدرسة البهاء زهير ثم مدرسة الشعب بأزجاله ولغته الجارية.

وأسلوب ابن الفارض فى الشعر اتسم بالزقة والظرف والصفاء وحيوية العاطفة والومض. وقد شغلت (تأنيته) الشراح حتى المخالفين له فى الرأى فكثرت شروحه وتشعبت..

وابن الفارض أستاذ الفن الثانى فى الشعر العربى وعلى نهجه سار شيوخ التصوف فى التعبير عن آرائهم بقصائد تأنية كإبراهيم الدسوقى وقطب الدين القسطلانى والسيد أحمد البدوى.

وعلى هدى مصر لم يتزمت ابن الفارض فنظم إلى جانب الفصحى من الشعر، الزجل بأنواعه وخاصة الشعبى منه فقد ذكر ابن خلكان أن (ابن الفارض قال المواليا وهو شعر يتألف من كلام العامة أو اللغة الدارجة وإن استخدام الألفاظ العربية الفصحى فإنه لا يلتزم فيها الإعراب بل كثيرا ما يقع فيها اللحن تمشيا مع منطق وأسلوب اللغة الدارجة التى يستخدمها عامة الشعب فى التخاطب والتحدث وفى نظم الأزجال والبليق والمواليا وكان (كان) وكما استمد ذو النون تصوفه من حكمة مصر القديمة، فان ابن الفارض استمد تطلقه من أفلاطونية مصر ثم مسيحيتها. فقد كان ابن الفارض يعتقد أن الانسان الواصل تتحد روحه بذات الله حتى لقد صرح فى شعره (بإمكان رؤية الله فى هذه الدار). أى أن الواصل تغلب (لاهوتيته)، (ناسونيته)، وهذا رأى مسيحى مصر فى المسيح من أصحاب (الطبيعة الواحدة).

كما تأثر العرب بالأفلاطونية في زيتها المسيحي ممثلة في كتاب «ديونيسيوس» Dionysius الذى يتناول أسرار الألوهية وعالم الملكوت مما قبس منه الكثير (إخوان الصفا).

ويلمح بعض النقات وجه شبه بين كتاب الغزالي (المنقذ من الضلال) وبين كتاب القديس أوغسطين المعروف «بالاعترافات»، فإن بين الكتابين موازاة تكاد تكون تامة فيما يحكيه كل من الرجلين عن تاريخ حياته) كما جاء في كتاب ارنولد نيكلسون.

كما تأثر ابن عربى بأفلوطين تأثرا بعيد المدى يعكس هذا كتاب «ابن عربى» حتى ليشك اسين بلاثيوس مترجم حياته فى صدق تجاربه الذوقية لحرصه على إدراج هذه التجارب فى التعريفات التقليدية للأفلاطونية.

وهكذا قام للنهضة العلمية العربية بناء على دعامة من مدينة الاسكندرية. واستارت أوربا سيرتهم فى العصور الوسطى فكانت الافلاطونية ركيزة لفلسفة العصور الوسطى وهى الفلسفة المدرسية Scholastic Philosophy وتركت طابعها على الفلاسفة المدرسيين.

مصر ومذهب الاعتزال:

وتأثر العرب بالاسكندرية مرة أخرى بالواسطة أى عن طريق النساطرة الذين كانت الاسكندرية مرباهم العلمى. وقد نقل العرب عن هؤلاء منطق أرسطو الذى كان من أثره فيهم نشوء مذهب الاعتزال كما نهج العرب نهجهم فى أسلوب التعليق على أرسطو بما يشكل شروحا فضفاضة للعبارة الواحدة وبلغ من اقتناع العرب بهذه الطريقة أن اتبعوها فى تفسير القرآن وشرح الحديث.

لقد علل الأستاذ العقاد فى كتابه «ابن رشد» الحركات الثقافية فى المغرب عامة -خلفا للمستشرقين- بظهور الدعوة الفاطمية فى افريقية الشمالية. ورأى أن ظهور هذه الدعوة فى المغرب غيرت فيه كثيرا من وجهات الثقافة والسياسة. كما كان له الأثر المباشر فيما شغل الأوربيين بعد ذلك خلال القرون الوسطى من موضوعات الفلسفة الدينية، وأهمها موضوعات النفس وخلودها وموضوعات العقل وعلاقته بالخلق والخالق.

ثم يرى العقاد أن الدعوة الفاطمية هي الدعوة الإسماعيلية بعينها لما كان الفاطميون ينتسبون إلى فاطمة الزهراء أو إلى إسماعيل بن جعفر الصادق تمييزاً لهم عن سائر العلويين .

وينتهي من هذا إلى أن أولئك الإسماعيليين كانوا يشتغلون بالفلسفة ، ويرجعون مذهب الأفلاطونية الحديثة .

ومن أتباع الإسماعيليين الذين نشروا هذا المذهب إخوان الصفا أصحاب الرسائل المنسوبة إليهم ، ومنهم مسلم بن محمد الأندلسي الذي نقل مذهبهم إلى البلاد الأندلسية .

وقد شاع مذهب الإسماعيلية شرقاً وغرباً في العالم الإسلامي من جبال أطلس إلى تخوم الهند وآسيا الوسطى ، وكان ابن سينا يقول «كان أبي ممن أجاب داعي المصريين ، ويعد من الإسماعيلية» .

ويقول توينبي : «في الفترة القصيرة التي عمر فيها المجتمع العربي كانت مصر هي البلد الذي اشتد فيه نبض هذا المجتمع الذي كان ضعيفاً خافتاً في غيرها من البلاد . وقد قدمت مصر لهذا المجتمع حافزاً هو التربة الجديدة» .

* * *

البيئة الحضارية:

لقد أسهم الفرس في الحضارة الإسلامية بنصيب وافر بالرجال العلماء ولكن مصر هي التي أعطت العرب والإسلام تربة جديدة ذات طبيعة قوية قادرة ومباعة ذات سالفة في الحضارة والتفهم والتعمق والانشاء.. تربة قادرة قام عليها بناؤه كما قام عليها من قبل حياة الحضارة الإغريقية التي لم تجد تربة أخصب من مصر لتتبلور فيها .

مصر والدين

* جمع الحديث

إن مفخرة العرب الكبرى (الإسلام) وفي الإسلام تميزت شخصية مصر في العطاء والوفاء . فما كادت مصر تدخل في الإسلام وتفتتح له حتى ساقبت الى جمع الحديث

وتسجيله على ورق البردى الذى عرفت به، وجهدها فى هذا كما يقول الدكتور كامل حسين فى كتابه (أدب مصر الإسلامية)، (يعد من أقدم المخطوطات العربية فى جميع مكاتب ومتاحف العالم).

وتتجلى شخصية مصر المحففة ذات العلمية فى هذا المضمرة فى صنيعها مع ابن مالك فحين اختارته أعملت فيه شخصيتها فلم تقبل الروايات كما هى فى الموطأ بل كان عبد الله بن وهب يدقق فى اختيار الأحاديث وهذا المصرى كثيرا ما كان ابن مالك يفتى بآرائه فإذا قال مالك (حدثنى من أرضى) فإنما هو عبد الله بن وهب.

وإلى مصر رحل جمع من الصحابة حملة الحديث عد منهم محمد بن الربيع الجيزى فى كتابه، مائة ونيفا وأربعين صحابيا وزاد عليه السيوطى وسعد فى طبقاته. يقول الدكتور أحمد أمين فى ضحى الإسلام (عد هؤلاء الصحابة مصريين لنزولهم فى مصر واستيطانهم بها ولذلك يلقبهم المحدثون، «المصريين»).

وإلى مصر رحل البخارى ومسلم والنسائى لاستقاء الأحاديث من ثقافتها. وطوف الحافظ السلفى ما طوف فى أكثر بلاد العالم الإسلامى وراء الحديث ثم استقر به الأمر فى الأسكندرية إذ بنى له الوزير المصرى ابن السلار مدرسة للحديث سنة ٥٤٦ هـ وفوض أمره إليه فصارت مدرسته كعبة يحج إليها طلاب الحديث.

إن الفقيه المالكى عبد الوهاب بن على الذى وصفه صاحب تاريخ بغداد أنه لم ير فى المالكية أفقه منه ضاقت حاله فى بغداد فتطلع إلى مصر الملاذ. واذ أكرمه المصريون «وعاش»، بقى فى مصر فلما حضرته الوفاة سنة ٤٢٢ هـ كان يقول: (لا إله إلا الله عندما عشنا متنا..).

ونبع من المدرسة المصرية فى الحديث سليم بن عتر التجيبى وعبد الرحمن بن حجيرة أبو عبد الله الخولانى (وقد روى له مسلم فى صحيحه ووثقه النسائى) ونافع شيخ مالك وفقه الحجاز، ويزيد بن أبى حبيب الأزدي والليث بن سعد.

ومن عطا. مصر فى الإسلام: الرجال

كان الشيخ عز الدين عبد السلام يقول (ديار مصر تفتخر برجلين فى طرفيها ابن منير بالاسكندرية وابن دقيق العيد فى قوص).

وكان الشافعي يقول للربيع بن سليمان: ياربيع أذع لى سرجا. يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول أحد شيئا فى الشعر إلا عرضه عليه -فياأتى به، فيذاكره وينظره ثم يقوم سرج الغول فيقول للشافعي: ياربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم. كما كان الشافعي يقول عن فقيه مصر قبله، الليث بن سعد: (الليث أفقه من مالك غير أن أصحابه ضيعوه).

* الفقه

وكان لمصر شخصيتها فى الفقه: حين كيفت آراء الشافعي وحورت وبدلت فيها حتى اضطر أن يكتب رسالته من جديد فيها عدولا منه عن رسالته القديمة التى كتبها بالعراق متأثرا فى الرسالة الجديدة بالبيئة المصرى وبما خالط وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه.

ومثل هذا فعله بمذهبه. ففى مصر كتب مذهبه الجديد وما أوسع الفرق بينه وبين مذهبه القديم الذى كتبه بالعراق. وكتابه (الأم) به شواهد كثيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه فى القراطيس. وشهادة الشعراء وصيغ الوقف.

أصبحت كتب الشافعي هى الكتب المصرية وحدها منذ القرن الرابع. وربما دل ذلك على أن ماتضمنه الحجة أو المبسوط تضمنته الأم. وربما دل على أن الكتب المصرية وحدها كانت هى المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث، قول أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١) لمحمد بن وارة إذ قدم إلى بغداد من مصر: هل كتب كتب الشافعي؟ قال لا: قال ابن حنبل: فرطت. فرجع إلى مصر فتنسخ الكتب.. ولقد روى أن ابن حنبل قال: (عليك بالكتب التى وضعتها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك). كما جاء فى كتاب الأستاذ عبد الحليم الجندي عن الإمام الشافعي.

وكان الشافعي نفسه يقول فيما روى البعض عنه (لا أجعل فى حل من روى عن كتابى البغدادي) وفى هذا ما فيه من اعتماده كتابه المصرى واعتداده به وحده.

لقد كان الشافعي تلميذا لمالك. يهاجم فى العراق مدرسة الرأى أى مذهب أبى حنيفة فما ان جاء مصر وتأثر بالحياة المصرية حتى مال عن مالك وكون مذهبه الجديد.

ومن الحديث (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) عن أبي هريرة رواه أبو داود في سننه والحاكم في المستدرک والبيهقي في المعرفة .

هؤلاء المجددون الذين اقترنت باسمائهم حركات البعث التجديدي في تاريخ الإسلام في البضعة عشر قرنا، مصريون معظمهم بالمولد أو المري أو الولاء .

ففي حياة هذه الفكرة التجديدية كما يقول الأستاذ الخولي (تجد مصر - كدأها - مشاركة بحيويتها حاضرة بانبعائها الذي يحدده تدينها المتفلسف وتلفسها المتدين وعملها العتيد في البعث ومن أجل البعث) .

* مصر وعلم القراءات:

وكما اتخذت مصر الإسلامية دورا هاما في علم الحديث اتخذت دورا ذائعا في علم القراءات . فمن (ورش) المصري أخذ علماء المغرب عن تلميذه (أبي يعقوب) الأزرق بن عمرو بن يسار المصري وأخذ الأندلس عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصري .

وفي القراءات موسقت مصر الدين بطبعها الفنان .

كتب الشيخ البشري مقالا عن (تقاليد مصر في الفن) جاء فيه أن متقدمي القراء في مصر (لا يبدؤون قراءتهم إلا من البياتي، وبه دائما يختمون) .

ويقول (على أننى لا أدري من أين جاء مصر هذا التقليد، ولا متى كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد (ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا البياتي هو نغمة البلد الأصلية، أو هو من أصل النغم التي تتقلب فيها حناجر المصريين . ففي الحق أن هذه النغمة، فوق سعة أفقها، وتقبلها لكثرة التصرف والتلوي، فإن المصري يجد من الاستراحة إليها والأنس بها، ما لا يجد لكثير .

أو لعله يرجع إلى هدوء في طبيعتها، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلي، ثم ينطف لها بعد ما نهكها الجهد الشديد) .

وفي يقيني أن ترتيل القرآن يسهم في محو الأمية بتركيب الموسيقى القرآنية في شعور الإنسان السامع .

وبعد القرآن يأتي الأذان . وعمل مصر فيه يحدث عن التناسق والهارموني في ذوقها .

فإن جميع مؤذني المساجد في القاهرة كانوا كما يروى الشيخ البشري في كتابه «قطوف» (إذا ظهروا المآذن للتهاتف بالأولى أو «الأولة» -ومن أولة الأذان هذه، ابتدع بيرم، فيما أرجح، حين تشرب الروح المصرية، ألوان الأولية في الغناء- وقفوا وقد أرففوا آذانهم، وعلقوا أنفاسهم في انتظار الأمر الذي يصدر إليهم عن مؤذنة الشيخ صالح أبي حديد بالنغمة التي يجرون فيها الأهازيج ليلتهم . فإذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالصياح بها، وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تقع للاسماع أصواتهم، وهكذا فلا تمضي دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد، وإذا بدأ بالبياتي، أو بالحجاز، أو بالسيكاه .. الخ . فهكذا وماشاء الله كان!) .

وهذا إذا دل من ناحية على القصد في ضبط المؤذنين لأصواتهم، وتحكمهم في نبراتهم وعدم تأثرهم بالأنغام الأخرى، وإلا اضطروا إلى الخطأ، ودفعوا برغمهم إلى النشوذ (النشاز) إذا دل هذا على شيء فإنه في الموقف نفسه دليل على أن أهل مصر أو سكان القاهرة على الأقل، كانوا أصحاب فن، وأهل ذوق، وعشاق تطريب! .

مصر وتفسير القرآن:

وأسهمت مصر في تفسير القرآن حتى قصدها الرحلة في طلبه . حتى البخاري نقل في تفسيره وتاريخه من «الصحيفة المصرية» في التفسير كما نقل عنها ابن جرير الطبري الشطر الأكبر من تفسيره ونقل عنها معاوية بن صالح قاضي قرطبة، وشاد بها جمع من العلماء حتى ليقول أحمد بن حنبل في مسنده - (بمصر صحيفة في التفسير لو رحل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا) .

وعلى الصحيفة المصرية ارتكزت التفسيرات في سائر الاقطار الاسلامية بما شملت من تفسير مفردات غريب القرآن بل تفسير الآيات تفسيرا تاما مع ذكر ناسخها ومنسوخها .

وفي القرن الرابع الهجري كانت مصر تمثل قمة الثقافة الدينية فقد كان فقيها أبو بكر بن الحداد عالما في وقت معا بالقرآن والحديث، والاسماء والكنى، والنحو واللغة وسير الجاهلية، والشعر والنسب، واختلاف الفقهاء وكان أعلم أهل وقته .. وكان يدرس في جامع عمرو وأخذ عنه أعلام الجيل الذي بعده .

وقد تكلم المشاركة فى إعجاز القرآن ولهم فى هذا الموضوع كتب مشهورة ولكنه حديث الدراسة للمصطلحات البلاغية وفنونها ولكن الدرس الشامل المستقصى .. الدرس الذوقى الفنى للآيات القرآنية وفنونها الجمالية وتخييم الشعر والنثر لها إنما قامت به مصر بحسبها الشاعر الشفاف .

يقول الأستاذ الخولى (ان كل ما نملكه من المصنفات -المفردة فى بلاغة القرآن إنما يرجع فيه الفضل إلى المدرسة الأدبية المصرية، التى كانت ظاهرة الأثر فيما حولها من الشرق القريب) .

وكم فى العصر العباسى من علماء الدين ممن أنجبت مصر بل ممن كانوا أقباطا أمثال ابن القطاس سعيد بن زياد صاحب الحلقة فى المسجد، وسعيد بن تليد كاتب القضاء، ويحيى بن بكير الفقيه المؤرخ .

ومن الظاهرات ذات الدلالة على شخصية مصر فى الإسلام أنها وقفت من العقيدة موقفا يتفق مع طبيعة الإسلام البسيطة السمحة .. ومع طبيعة مصر الصافية السهلة بلا كلفة أو تعقيد. رفضت مصر أن تتبع الآراء والأهواء التى عرفت فى بعض البلاد الإسلامية من الشيعة والخوارج والمعتزلة . لم تمل لهم مصر ولم تتجاوب معهم بل لاذت بالمعنى الجامع والكلمة الشاملة .

وفى القرن السابع الهجرى عندما كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها . وإذا حزب الأمر تطلع الإسلام والمسلمون إلى مصر لتحسم الموقف كدأبها فى الأزمات الكبرى . فاتفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقي الدين السبكي ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح المصرى، والوجدان المصرى مذهباً ينقاد الناس له، ويرتاحون إليه، ويقرون عنده .

وإذا لم يكن هذا الميل إلى التوفيق مصرىا فقط فى هذا الشاهد فانا لنجد كما يقول الأستاذ الخولى: (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة إليه يتجه إليها صوفى مصرى بلدى السبكي هو الشعرانى، وهو أصيل فى الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول . وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون أنه مصلح يكاد الإسلام لا يعرف له نظيرا . وحسبنا تركيه لميل البيئته المصرية إلى هذا التوفيق الفقهى الذى لا تسمع فيه لهذا العصر صوتا أجهر من هذا الصوت) .

لقد تلقى الفنان المصري التشكيلي اللغة العربية فاستخدم موسيقاها في فنه . فان من يتأمل الألوان في رخام أرضية السلطان حسن يجده لونا (بديعا) فيه تقابل الألوان وتجانسها على مثال الطبايق والجناس في الأدب وأحيانا يسجع الفنان المصري المسلم بالخطوط والتشكيلات .

واستلم الفنان المصري في العصر الإسلامي نظام الأحجار المتداخلة في البناء ولكنه زاد عليه (التقسيم) بالألوان . كان مأخوذا بالنظام والموسيقى من أثر التاريخ الطويل ، فخلق من (التقسيم) في الفن الإسلامي ، أفرحا تغنى .

وتأتى القبة (فتنشد) بالألوان وتقسيم الخطوط في (الحنى) تواشيح .

لقد موسقت مصر الدين حين رددت آياته ، ورتلتها ترتيلا ، لأنها تعرف بالحس الحضارى أن القلب البشرى يحن إلى النغم والتناغى فإذا اقترن المعنى الشريف بالنغم الجميل تلتفت النفس سيالا من الحنان .

والفن الإسلامي في مصر حين يطعم ويرضع ، يستجمع خبرات المكان الذى أنطق الحجر . ولعب بالذهب ، ومهر في التشكيل والتصوير .. وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضياء الجواهر النادرة فيما بين القصرين مما أغدقته ، على الفاطميين ، القاهرة .

ففى العصر الإسلامى غلبت شخصية مصر على الصناعة والفن فساد
فى الزخرفة استعمال الحفر والتلوين والتطعيم بل اقتنى الحكام المسلمون التماثيل ، هواية مصر المحبوبة منذ القدم مع توهم كثير من المسلمين تحريم الدين لها ، وما حرم الدين إلا المعبود منها أو ما قصد به العبادة . ومتى ؟ فى حادثة العهد بالاسلام .

لقد كثرت التماثيل فى العصر الفاطمى حتى كانت تهدى إلى قاضى القضاة وحين نسب المقريزى إلى صائم الدهر تكسير أنف أبى الهول وكسر التماثيل فى عصر الاضمحلال ، علق على هذا بأنه عمل ينافى الدين .

يقول الأثرى الإسلامى الكبير الأستاذ حسن عبد الوهاب فى بحثه الذى ألقاه فى مؤتمر الآثار فى البلاد العربية المنعقد فى دمشق سنة ١٩٤٧ :

إن العمارة الإسلامية فى القاهرة امتازت بميزتين: الأولى أنها احتفظت بالكثير من التفاصيل المعمارية التى انعدمت أو قلت من الأقطار الأخرى التى كانت تشترك معها فيها، والثانية أنها انفردت بمميزات اقتصرت عليها، مثل القباب والمنارات ودقة أعمال النجارة والجس والرخام، ميزتها على كثير من سائر البلاد الإسلامية).

ولما كانت (المساواة) قيمة كبرى من قيم الإسلام، فقد انعكست هذه (القيمة) على العمارة الإسلامية من إثمار الإسلام لها، واحتفاله بها، وتأكيدده عليها...

مالت العمارة الإسلامية إلى الأفقية التى تحمل معنى المساواة حين تعين «الرأسية» على التفاوت، وترفع، الارتفاع وشموخه. ولهذا يقوم نظام النسب فى الإسلام كما يقول العالم الأثرى الاسبانى «دون مانويل جومث مورينو» على أساس الوضع الأفقى وكأنه تحية لروعة الخلق الإلهى فى البحر والسهل.. وكأنه تأكيد لصفوف المؤمنين فى المسجد حين الصلاة. ولايستثنى من الأفقية الإسلامية المحببة إلى الفنان المسلم، إلا المئذنة لحاجة الدين إلى انتشار دعوة الآذان على مساحة واسعة لإقامة الصلاة أحد أركان الدين الخمسة ولايتحقق الانتشار المنشود إلا إذا انطلق الصوت طليقا على ارتفاع.

حتى ما يخرج عن «الأفقية» من الأشكال، يطوعه الفنان المسلم لها فيؤثر الزاوية المنفرجة على القائمة بارتفاعها.(١)

وتتمثل الأفقية المنعكسة عن المساواة الإسلامية فى ميل المعمارى المسلم إلى السقوف المنخفضة بدءاً بجامع المدينة ثم جامع عمرو بل جامع قرطبة وجامع ابن طولون.

ولكن مصر ما لبثت أن عملت على تصعيد الارتفاع بورتاتها القديمة التى رفعت المسلة والهرم.

ويتجلى ميل مصر إلى السمو فى الأعمدة والأسقف فى جامع السلطان حسن حتى لىسميه أساتذة العمارة من المستشرقين هرما إسلاميا.

* * *

(١) اقرأ (كتاب القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية) للدكتور عبد العزيز سالم.

وأضافت مصر الإسلامية إلى قديم فنها فى الحفر، الغائر منه والبارز، والتخريم والترصيع بالمينا.. فن التكفيت. ومن مصر خرج هذا الفن، وباسمها سار، وعنها أخذته أوروبا فقلدت إيطاليا دون أن تضاهى فلم تبلغ أوج مصر ولم.. تشائها.. ومضت (بيزا) بفخر اقتناء أروع تمثال برنزى يجمع بين جسم الأسد ورأس النسر، آية من مصر.

وأبرز ما تجلت شخصية مصر القديمة فى العصر الفاطمى الذى تم فيه تعريبها وتأسيس إسلامها.

فى العصر الفاطمى الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية.. فى العصر الفاطمى هذا أطلت مصر القديمة كالمعمدة على الحياة المصرية ذات القيمة ففرضت أسلوبها على الفن فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التى ألفها أجدادنا وتجلت كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق (فى صورة رائعة نشاهدها فى حجاب كنيسة الست بربارة بالمتحف القبطى. وفى المنبر الموجود فى مسجد قوص وفى محراب السيدة رقية وألواح القصر الفاطمى الصغير فى المتحف الإسلامى).

يقول الأستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه «من روائع العمارة الإسلامية فى القاهرة» إن الدولة الفاطمية (أحضرت معها فى مستهل حكمها بالقاهرة بعض أساليب العمارة التونسية، ولم تلبث طويلا حتى تخلصت من تلك المؤثرات وأصبحت لها طابع قاهرى بحث فى جميع تفاصيلها).

ويقول الفنان الأستاذ حامد سعيد فى حديثه عن الجمال الرياضى المصرى: (أن الأعمال المصرية لها جوها الخاص الذى يميزها حتى عن الأعمال التى خرجت مثلها من ثقافة واحدة إلا أنها فى بيئة أخرى كما هو الحال فى الفن الإسلامى فى الهند وإيران والعراق وتركيا وبلاد المغرب وأسبانيا حيث تشترك جميعها مع الفن المصرى الإسلامى فى وحدة ثقافية كبرى ولكن الفن المصرى الإسلامى يشيع فيه ذلك الجمال الرياضى الذى هو طابع الفن المصرى خلال العصور).

ومهرت مصر بفنها وزخارفها الهندسية والنجمية أشهر الآثار الإسلامية فى العالم مما يشهد به تابوت الإمام الشافعى بقبته وتابوت الإمام الحسين ومنبر مسجد ابن طولون.

وفن الزخرفة فن مصرى قديم وولع مصر به تحكيه آثارها فيه ونقوشها التى تدل على مساحاتها الكبيرة على أن الزخرفة المصرية كما تقول Pavla Fortova-Samalova

في كتابها Egyptian Ornament (لم تكن تنبع فقط من رغبة حميمة في التعبير عن الإيقاعات العميقة للحياة في أسلوب منظور، وتنبع من حاجة الإنسان إلى رسم ممتلكاته الخاصة بشكل ما.

كما تعكس هذه الآثار إحساس مصر باللون وقدرتها على التنوع باستعمالها عددا محدودا من الألوان لتخلق منه عددا عظيما منوعا).

وأعطت مصر فيما أعطت طرقا جديدة لم تكن معروفة من قبل وذاعت بفضلها في شرق العالم وغربه كطريقة التشويق وطريقة التجميع وطريقة الخراط مما كسبه العرب من مصر فيما كسبوا. وإذا عرفته أوروبا عن طريقهم في الاندلس، سمته «الأرابيسك» وعاشت تسميتها «الأرابيسك» وما هو إلا فن مصري قديم تشهد به آثار توت عنخ آمون والمتحف القبطي والآثار القبطية التي تعد نماذجها فيه امتدادات لروائع مصر القديمة. وأنا لا أحيل القارئ على المعابد المصرية المنتشرة على صفحة الوادي فتلك مهمة متعذرة في زحمة الحياة، إلا على الدارسين والمفتونين ولكني أطلب الى القارئ أن يطالع كتاب: Egyptian Ornament ليرى فنون الزخرفة المصرية ثم أدعه يقابل ويحكم بنفسه. ولكن العرب عندما أخذوا مايسمى الآن «الأرابيسك» طوروه حتى وصل في الحمراء إلى ٦٤٠ شكلا.

وأعطت مصر للفن الإسلامي، الجامع الأحمر بواجهته التي تعتبر قطعة من الفن الجميل والتي نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالمقرنص Stalactite والتي أصبحت من أخص مميزات الفن الإسلامي كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق كما نشاهد فيها الأحجار التي تفتن البناء في قطعها وتشويقها وهي -ظاهرة معمارية ظهرت لأول مرة في مصر في عصر البطالمة في مقابر كوم أبويله ثم اختفت لتظهر من جديد في هذه الواجهة. كما نشاهد أيضا كثيرا من العناصر الزخرفية التي كانت مألوفة في العصر القبطي قد رسمت هنا بطريقة متقنة تدل على نضوج الملكة الفنية عند رأسهما. والواقع أننا نلمس في زخارف هذا المسجد وجامع الحاكم، الروح الفنية المصرية ونذكر أنها أخذت تبرز من جديد قوية واضحة بعد أن تخلصت من الفن الأجنبي الذي فرض على البلاد في العصر الطولوني.

حتى الزخرفة بالاشكال الهندسية من مثلثات ومربعات ودوائر وخطوط متلاقية ومتقاطعة مما اشتهر به الفن الإسلامي تعود إلى الفن القبطي الذي لجأ إلى هذا الأسلوب

فى مرحلة من مراحلها خدم فيها الرمز فى التعبير وتعتمد البعد عن تصوير طبيعة الإنسان حتى لا يتورط فى رسوم لا يرضى عنها رجال الدين .

ولما لم يكن رجال الدين فى الإسلام أقل تحرزا فإن الفنان المسلم لم تطل حيرته إذ وجد فى مصر الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية التى تبعد عن تصوير الأشخاص فقبس منها . وهكذا نجد كما يقول الدكتور مراد كامل (صفات مصرية أصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره إلى الفن المصرى الإسلامى) .

ومن أجل هذا وغيره يعتبر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق، الفن القبطى «حلقة اتصال بين الفنون المصرية القديمة السابقة على الإسلام وبين الفن الإسلامى» .. فمن النقوش الموجودة على المعابد الفرعونية ومن آثار البطالمة، ومن الفسيفساء الرومانية، ومن التحف الساسانية والبيزنطية التى وصلت إلى مصر عن طريق التجارة أو الإهداء .. من هذه الأشياء استمد الفنان المصرى القبطى عناصره الزخرفية التى كون بها فنه الجديد ركيزة استمد منها بدوره الفنان المصرى المسلم فنه الجديد .. القديم .

وأعطت مصر الفن الإسلامى مدرسة السلطان حسن التى تعد من أعظم الآثار الإسلامية فى العالم وأروعها فى مصر .

ومصر هى التى استعملت لأول مرة الفسيفساء المذهبة حين زين بها البناء المصرى محراب قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب التى أنشأتها زوجته شجرة الدر .

مصر أول من استعمل القبو فى التسقيف عندما بنت مشهد الجيوشى حين افتت الفنان المصرى فى محرابه فكان آية ...

ومصر هى التى طورت (القبة) التى غدت من معالم الفن الإسلامى وبلغت بها ذروتها فى عهد المماليك حين أهدى الفن المصرى، قلاوون، قبته ومحرابه، مستمدة القدرة مما أسلفت فى فن العمارة والنقش والزخرفة حتى لتعد زخارف الفنان المصرى فى واجهات المساجد والمآذن امتدادات لفن مصر القديمة بما حوت من عناصر زخرفية ...

وإذ عاد من جديد النشاط إلى المحاجر والنقش على الحجر .. ابتسم القدر وتذكر الزمن .

وكما أعطت مصر الفرعونية للعالم القديمة أوانى الفخار الجميلة وابتكرت الخزف وحذقت صناعته وعلمته غيرها من البلاد، أضافت مصر الإسلامية، الخزف ذا البريق المعدنى ثم ابتكرت مصر صناعة القراميد .

حتى الفخرائى المصرى البسيط تفنن فى تشكيل القلل وزخرفة شبابيكها زخرفة
تظفر بإعجاب الرائى .

وابتكرت مصر فى عهدنا الإسلامى الزجاج ذا البريق المعدنى « كما
ابتكرت مصر الزجاج المموه بالمينا» . والمشكاوات التى أثمرت عن مصر فى العصر
المملوكى تشهد بعلو كعبها فى صناعة هذا اللون الحضارى . وتطلعت إيطاليا إلى مصر
مرة أخرى فقلدتنا .

إن الزجاج المصرى عنوان شفاف للحضارة المصرية . وقد وصل الزجاج قمته فى
مصر الفاطمية . يوم أعطته مصر فيما أعطت البللور الشفاف . لقد انشرح صدر مصر
للطاء .

أطلت مصر القديمة على الحياة الفنية فلعبت دور الطراز التى عرفت بها مصر
دورها فى قصور الخلفاء والأمراء والحكام فى أنحاء العالم الإسلامى . وكانت الكعبة أبرز
ما اقترن باسم مصر من أصحابها حتى صار تقليداً مصرياً أن تصنع مصر كسوة الكعبة
سنوياً .

وأحب العرب من مصر المطارف والقباطى والبدنة والقصب وكم سافر لمصر فى
الخارج نسيجها وحريرها وطنافسها .. نعم طنافسها فقد أثبتت حقائق الفسطاط سبق مصر
فى صناعة السجاد ومنافستها لإيران فى هذا المضمار الذى يحسبه البعض وقفا عليها .
وفى متاحف أوروبا بعامة وقيينا بخاصة يقوم الدليل .

يقول اريرى (إن مصر تقوم وسط العالم الإسلامى فى الصميم ومن ثم كانت لها
صلاحية الدور القيادى فى الحركات الإسلامية بما هى مهياة له .. تماماً كما فعلت فى
العصور الإغريقية والمسيحية إذ كانت بمثابة مستودع تبتقى فيه أفكار وثقافات الشرق
والغرب وحتى اليوم يعجب المرء من أن مصر لاتزال تمثل هذا الدور . تقدم الغرب إلى
الشرق الإسلامى وتقرب بنفس القدر والاهمية الشرق الإسلامى إلى الغرب .. كان هذا
ولا يزال عمل مصر الأرفع . وفى هذا العمل لعبت مصر دوراً لاينكر ولايجحد فى مقدرات
الإسلام) .

مصر فى العربية:

لقد أخذت مصر فى بداية عهدنا باللغة علوم العربية عن العراقيين .. والحجازيين
بالطبع بدراسات أدبية ونحوية ولغوية ونبغ من أبنائها الكثيرون ثم رحل إليها من

الاندلس الباجي الاشبيلي وابن لبابه وغيرهم. وقامت مساجد مصر بدور كبير في ١٦٩
الثقافة الإسلامية حتى لقد أحصى المقدسي في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء . مائة
وعشرين مجلسا من مجالس العلم . فكانت مطمح طلاب العلم وأساتذته على السواء وفيها
تخرج أعلام وتلقى مشهورون . أدى عن مصر هذا الدور الحاسم ، جامع ابن طولون
وجامع عمرو بن العاص بل سوق الوراقين حيث كانت تدار في دكاكين الكتب المناظرات
ثم ، الجامع الأزهر فيما بعد حيث كانت مصر تشع العلم وتجري الرزق .

قامت مصر مقام مدارس بغداد في المشرق ، ومدارس قرطبة في المغرب فقد ورثها
جميعا بعد أفول الدولتين الأموية والعباسية ، الجامع الأزهر الذي انفرد (بإمامة العلم في
بلاد الإسلام) .

تلك الإمامة التي شهد بها حتى الترك - وما أكثر ما بين مصر وبينهم - فقد كان
الوزير العثماني (أحمد باشا) يقول عن مصر إنها (معدن العلوم والمعارف) .

اختص الأزهر كما يقول الأستاذ عبد الحلیم الجندی (أول مرة بتدريس فقه الشيعة .
فظلت للشافعية والمالكية حلقاتهم بالجامع العتيق عمرو ثم صار الأزهر لكل المذاهب .
وقصده الغرباء وألقى فيه الدروس مشيخة العلم ، طوال القرون الماضية مثل عبد اللطيف
البغدادي وابن خلدون .

ولما عفت معاهد بغداد وقرطبة ، أقبل المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها على
الأزهر ، فكان ملاذ الشعب والدولة - حتى إذا كان الاحتلال العثماني (٩٢١ هـ -
١٥١٧م) بقى الأزهر يحمل المشعل ، فحفظ للامة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم .

وفي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي نهض الأزهر ، بأعظم كفاح لطرد الغزاة
الفرنسيين ، وها هو ذا اليوم يحمل تبعاته في نهضة الأمة الإسلامية كجامعة كبرى لعلوم
الدين والدنيا ، من كليات أصول الدين والشريعة والقانون واللغة . إلى كليات الطب
والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها) .

وفي خارج مصر حدث بناء المدارس في القرن الخامس . كالمدرسة البيهقية
والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية لدراسة الدين والفقهاء .

ولكن لم يبق على الزمن إلا الأزهر يصدر العلم إلى بلاد المسلمين ويوفر العلماء .
يقول الأخ السوري الدكتور أسعد طلس ، في حديثه عن العهد العثماني بالشام ، (ولولا
الأزهر في مصر لانطفأت شعلة العلم في الشام) .

ويقول أيضا في كتابه: «مصر والشام في الغابر والحاضر» (استطاع -أى الأزهر- خلال المحنة الشاملة أن يستبقى شيئا من مكانته فيغدوا ملاذاً أخيراً لعلوم الدين واللغة ويغدو بنوع خاص معقلاً حصيناً للغة العربية تحتفظ في أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ويدراً عنها التدهور النهائي ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها.. وربما كانت هذه المهمة السامية التي ألقى القدر زمامها إلى الجامع الأزهر في تلك الأوقات العصيبة من حياة الأمة المصرية والعالم الإسلامي بأسره هي أعظم ما أدى الأزهر من رسالته وأعظم ما وفق لإسدائه إلى علوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل).

الأزهر:

الأزهر من العالم الإسلامي واسطة العقد فهو يؤمه وضعا، ويتوسطه موضعاً. يقوم على أرض الحضارات والعلوم والفنون منذ القدم مما يمدّه بالبقاء والأصالة والاقتدار... وهو لا يبعد عن الحجاز مهبط الوحي ومهد الرسالة وموطن الرسول.

وهو في الشمال من إفريقيا.

وفي الغرب من آسيا.

وفي الجنوب من أوروبا.

وكلها تسعى إليه وتلتقى عنده.

ولعل نظام الأروقة الذي يسود به خير شاهد على هذا. بالأزهر ٣٦ رواقاً يؤمها المسلمون من مشارق الأرض ومغاريها. يتدارسون فيها علوم الدين وشعائره.

والأزهر هو ملتقى المسلمين من آسيا وإفريقيا وأوروبا وجميع أنحاء العالم، الأزهر هذا ومن ورائه مدينة البعوث الإسلامية ينهض برسالة شاملة اليوم كالأمس. رسالة دينية واجتماعية وسياسية.

به اتصلت حياة الأحرار وأصحاب الدعوات كالكواكبي حين جاء من سوريا، بل من الأزهر سافر الشيخ محمد عبده إلى الشام فالتف حوله السوريون سنة ١٨٨٥م (يتلقون عنه دروس العلم والحكمة والخير) كما يقول الدكتور اسعد طلس.

كما ترك الشيخ محمد عبده في بيروت أثراً عظيماً.

بل إن بعض الدعوات الاجتماعية في بعض بلاد الشرق، نهض بها أبناؤها ممن تلقوا العلم في الأزهر. وليس إلى الشك من سبيل أن جزءاً كبيراً من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب في رحاب الأزهر وفي رحابه كتبت فصول من قصة تحرير اندونيسيا.

بل كذلك تونس والمغرب وليبيا والجزائر وكثير من بلاد أفريقيا وآسيا.
إن الأزهر حلم الملايين فى القارتين.
وفى الأزهر قامت الدعوة إلى الإصلاح الدينى على يد الشيخ محمد عبده والشيخ
المراعى.

كما يمثل الأزهر الساهر على الثقافة الإسلامية.
إن أضبط مصحف كتابة، ورسمًا، وشكلا من عمل الأزهر.
والمصحف المرتل.
والمصحف المجود.

إن الأزهر على مسار ألف عام، يقوم علامة مضيئة بارزة فى تاريخ
الإسلام وفى تاريخ مصر على السواء وفى تاريخ الأمة الإسلامية.

لقد اشترك الأزهر فى صنع الأحداث بمصر والمنطقة العربية بل والعالم الإسلامى.
ففى رحبته قام الخطباء والزعماء والمصلحون وأهل الفكر من أنحاء العالم الإسلامى
بالدعوة إلى إصلاح الدين والدنيا بما يعنيه الإسلام من شعائر وشرائع.

ومن رجال الأزهر رفاة الطهطاوى وسعد زغلول وعلى مبارك والشيخ محمد عبده
والشيخ المراعى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت والشيخ عبد الحلیم محمود.

حتى النهضة الحديثة تدين للأزهر بروادها كتابا وأدباء ومفكرين وعلماء حتى أولئك
الذين انسلخوا منه فى فورة الشباب وثورة الطموح أمثال الدكتور طه حسين وصاحب
الرسالة الأستاذ أحمد حسن الزيات والأستاذ الزناتى ولكنهم لم ينسوا الأزهر فى حياتهم أو
فى كتاباتهم... أيامهم به وآمالهم فيه.

حين ترجم الأستاذ الدكتور أحمد أمين لحياته وقف وقفة طويلة عند الأزهر...

بل إن الذين تخرجوا من القضاء الشرعى إنما يمتدون بجذورهم العلمية الى الأزهر
فقد كانت تجهيزية الأزهر وسيلتهم إلى مدرسة القضاء وأحد هؤلاء الأعلام الأستاذ أمين
الخولى.

وفى الأزهر تحلقت حول جمال الدين الأفغانى الندوة.. وإلى الأزهر اشرب الملوك
والسلطين والأباطرة يجسون نبض شعوبهم على وقع كلمات الإصلاح تنادى بها السلطة
الحقيقية وهى السلطة الروحية ممثلة فى علماء الأزهر ورجال الفكر والعلم حتى لقد طلب

النشاه وساطة سلطان تركيا عند جمال الدين الأفغانى أن يوقف الحملة عليه فقال العالم فى عزة المؤمنين الذين قرنهم الله برسوله فى الآفة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) قال الأفغانى ردا على رسالة سلطان تركيا: (قد عفوت عن شاه العجم...).

وكم للأزهر ورجاله من مواقف فى حياة العالم الإسلامى، وكم للأزهر ورجاله من منازل فى قلوب المسلمين فى مختلف ديارهم.

* * *

وتعددت مراكز الحياة الفكرية فى مصر وفيها نبغ عدد من العلماء ذكرهم الحافظ السلفى فى معجمه. وكانت أسوان وقوص وأسيوط من مراكز العلم فى مصر وحواضره وكانت الاسكندرية.

وقد اشتهرت الاسكندرية فى القرن السادس الهجرى بمدرستين كبيرتين.. للثقافة الإسلامية بعامة والحديث بخاصة وهما: المدرسة العوفية نسبة إلى ابن عوف أحد فقهاء الاسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك، والمدرسة السلفية وشيخها الحافظ بن طاهر السلفى.

وبعد غارات المغول والتتار فى الشرق وحركات الافرنج فى الغرب (اسبانيا) كثرت الرحلة إلى مصر وتجمعت الحركة الفكرية فى القاهرة. وكما حفظت مصر من الضياع آداب اليونان وعلومهم والتي اعتمد عليها العرب فى تكوين شخصية حضارية لهم، حفظت فى هذه الهزات تراث العرب الأدبى والفنى بل ونشرته بينهم فى مختلف بلادهم.

وبعض دور مصر فى العلم، العلماء وما علموا. ومن أبناء مصر الذين عاشت على كتبهم الثقافية الإسلامية حتى عصرنا الحاضر:

على بن منجب الصيرفى الذى نقل عنه صاحب جريدة القصر، وابن برى النحوى الذى أخذ عنه أبو موسى الجزولى صاحب المقدمة فى النحو. قدمت مصر أيضا جمال الدين بن هشام صاحب اللبيب الذى أشاد به ابن خلدون فى مقدمته، والقفطى النحوى اللغوى العروضى الأديب صاحب المواقف الأبية عند السلاطين والأمراء الذين كانوا فى إجلالهم له يخدمونه.

والقفطى (على بن يوسف) صاحب التواريخ.

والسخاوى صاحب الشروح .

والبوصيرى صاحب البردة .

وابن ظافر الأزدي صاحب بدائع البدائة .

والليث بن سعد ، وابن الوزير التجيبي ، وعبد الحميد بن الوليد
المصرى ، والشاعر المصرى الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر ،
والشاعر سعيد بن عفير الذى كان الوالى عبد الله ابن طاهر يقول (رأيت بمصر من
عجائب الدنيا ثلاثة أشياء النيل والهرمين وابن عفير) .

الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء كما كانوا يدعونه .

ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين وملوى وأول من ألف بالعربية فى الأقباط .
وكتابه «تاريخ البطارقة» موسوعة استمد منها المقرئى الكثير من خطه كما نقل عنه
القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» .

وممن احتضنتهم مصر:

عبد اللطيف البغدادى العلامة والرحالة .

والسرقوسى عثمان بن على بن عمر النحوى الصقلى .

وابن خلكان ، ونجم الدين المغربى القصرى .

والخطيب التبريزى البغدادى .

والشاطبى صاحب القصيدة المشهورة فى القراءات (الشاطبية) وعدتها ألف ومائة
وثلاثة وسبعون بيتا .

وممن سمعوا على مصر:

الهمزانى صاحب التصانيف الفائقة .

وابن الجلاجلى ...

وابن سعدون القرطبى .

وابن ظفر الصقلى .

وابن الحاجب وهو ممن نشأتهم مصر اذ ولد بها . وهو صاحب كتابى الكافية والشافية
فى النحو وله المؤلفات الثقة فى العروض وعلم الأصول والجدل وعلم الفقه .

وممن صنعتهم مصر على عيناها القاضى الفاضل الذى تعلم فن الكتابة عن
الخلال المصرى. والقاضى الفاضل يعتبر أحد أربعة معالم رئيسية فى تاريخ الادب
العربى أو أربع طبقات: ابن المقفع، الجاحظ - ابن العميد - والطبقة الرابعة على رأسها
القاضى الفاضل.

ومع الرجال النساء

فقد كان بمصر من النساء المشهورات بالعلم والأدب جماعة ذكرهن السلفى فى
معجمه وابن خلكان فى الوفيات، من بينهم:

تقية بنت غيث بن على الأرمنازى وخديجة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى المدعوة
مليحة والجديدة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى.

وست الأكياس المصرية التى نوه بها السيوطى فى حسن المحاضرة.

ومن معطيات مصر فى العربية الموسوعات كصبح الأعشى للقلقشندى
المصرى.. والقواميس كالذى وضعه ابن منظور الذى يعد أعظم موسوعة لغوية فى
اللغة العربية. (وهكذا وضعت مصر لسان العرب).

ولم تكتف مصر بالتفوق فى العلوم العربية البحتة بل ابتدعت من وحي طبيعتها
علومنا وأهدتها إلى اللغة العربية فيما أهدت. فابتدعت مصر فن «الخطط
والأخاذه» على يد أبى عبد الحكم يقول الدكتور كامل حسين: إن هذا النوع من التاريخ لم
يكتب فيه أحد قبل المصريين مما أخذه عنهم مؤرخو مصر الإسلامية كابن زولاق -
والكندى والقضاعى وأبن دقماق والمقرزى من أصحاب الخطط. كما يبدو أثر مصر
واضحا فى كتاب «المغازى» لابن إسحق.

ونبغت مصر فى فن السير لسابقتها فى تدوين التاريخ وتسجيل الحوادث فملء
الادب الشعبى المصرى بفن السير. فالمصريون هم الذين وضعوا سيرة «عنترة بن شداد»
و«سيرة البدوية» ثم «سيرة الهلالية» وسنفردهم للأدب الشعبى فصلا يفصل ما أجزته هذه
الإشارة.

وفى مصر دون باقى بلاد العالم الإسلامى عرفت الكتب العربية
التقسيم والتبويب والموضوعية حين جرى علماء العراق على طريقة الأخذ من كل
شئء بطرف.

ولعل أسلوب مصر الحضارى فى التأليف يمت الى عراققتها فى المعرفة . وقد غلب أسلوبها كشخصيتها حتى أن الفارابى عندما دخل مصر ومعها كتابه «المدينة الفاضلة» سأله المصريون أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلثمائة .

أما عطاء مصر فى البلاغة . فقد كانت مصر مدرسة بلاغية أدبية تقابل مدرسة المشرقى البلاغية الكلامية . ولمدرسة مصر ، فضلا عن المسامته ، آثار فى المدرسة الفلسفية بالمشاركة القوية والتوجيه الخاص فقد نقدت مصر ، نقدا عليه مسحة من التهكم مدرسة البلاغة الكلامية ورجالها وعلى رأسها الرازى والتفتازانى .

كانت مصر فى تصنيفها للبلاغة تستبعد بروحها الفنية ، الفلسفة الكلامية . استبعادا فيه بغض لها حتى لىسمى رجلنا السبكى ، هذا الاستبعاد ، تطهيرا . وعمل مصر فى البلاغة من خلال صاحب كتاب (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح) يتميز بتبرئتها من جمود الفلسفة وجفافها والاتجاه بها اتجاها عمليا .

كما تتميز بالموضوعية فى البحث ، والتعمق ، والمقارنة ، والربط ، والتحقيق والتصحيح ، والاستنتاج ، واللمح ، والأناقة الحضارية ، واللياقة والرهافة ، والذوق الشاعرى وما يملك من رفيف وتفويف .. والدقة وسعة الأفق . والبسطة والرحابة وطول النفس بلا عسف ولا تزمت مما يغلب على كتب البلاغة الشرقىة فى ذلك العصر .

هذه مصر فى البلاغة وهى فى (علم البديع) أبدع . فقد وصل المشاركة وعلى رأسهم السكاكى الى تسعة وعشرين نوعا من البديع ووصلت على يد بن أبى الإصبع إلى بضعة وعشرين فوق المائة! منها عشرين من ابتكارها بشهادة النقاد فى ذلك العصر مع مافى هذه الشهادة من غبن المنافسة الطبيعية بين النظراء وإلا فلماذا لم يلتفت غيرها إلى عشرات الأنواع التى لمحتتها مصر بالذكاء والتوقد والبراعة ولطف الحس؟

وبعض ما ابتكرت مصر أو نفذت إليه مصر الذوق الحضارى:

النزاهة: نزاهة الهجاء عن الفحش .

والتدبيح: وهو فن التعبير عن المعانى بالألوان .

والتصرف: وهو اللعب بالكلام فى براعة وغندرة .

والتهكم والتندر: ومصر بخفة الظل لاتجارى فيه .

وطبيعى أن تهتدى مصر إلى هذه الألوان بوحى من طبيعتها ويمدد من ماضيها. ومثل هذا الصنيع فعلته مصر حين أذاعت فى الأدب العربى شعره ونثره فن التورية.

وبعض عطاء مصر فى البلاغة والبديع كتب كثيرة منها:

* (تنقيح البلاغة) لآبى سعد محمد بن أحمد العميرى، النحوى، اللغوى.

* (رسالة البلاغة) للقاضى الفاضل.

* (الطريق إلى الفصاحة) للشيخ الرئيس علاء الدين.

النفيس المصرى..

* (معالم الكتابة ومغانم الإصابة) لعبد الرحيم بن على بن شيث يخالف فيه اصطلاحات البلاغة المأثورة عن المشاركة.

* (سر الفصاحة) لأبى محمد عبد الله بن محمد الشهير بابن سينا الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ).

* (الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز) لسultan العلماء أبى محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام المصرى (ت ٦٦٠ هـ).

* (بديع القرآن) للاديب الشاعر المصرى زكى الدين عبد العظيم، بين فيه مافى القرآن من فنون البديع فأحصى من ذلك مائة باب وثمانية أبواب.

* (تحرير التحبير فى علم البديع) للاديب الشاعر المصرى ابن أبى الأصبع.

ومن رجال مصر فى هذه الحلبة ممن ألفوا الشروح والحواشى والتقارير والأصول، والمتون ممن حاول، الأسناذ الخولى لهم عدا:

الأنصارى - والعزى - والأخضرى - والخفاجى - والعليمى - والطبلاوى - والبهوتى فى القرن الحادى عشر.

والحفنى والملوى والدمنهورى والسندوبى فى القرن الثانى عشر.

والأجهورى، والأمير، والساوى، والباجورى، والقطار، والخضرى، والمرصفى، والدسوقى، والبنانى فى القرن الثالث عشر.

والإبيارى، والإنابى، والشرينى، والطهطاوى فى القرن الرابع عشر.

هؤلاء بعض أعلام مصر فى البلاغة وأن استيفاءهم لكثير.

وبعد البلاغة، الشعر.

فى مصر اختلفى من الشعر العربى آثار البداوة . فالشعر العربى فى مصر حتى ماكان منه من نظم القبائل العربية المهاجرة إليها، تسمح وجرى سهلا واختار البحر القصيرة التفاعيل وشاعت فيه الفكاهة المصرية التقليدية والسخرية اللاذعة .

كان من أثر مصر أن سرى فى الشعر العربى السمات المصرية معانى، وفكاهة وسهولة .. كل هذا بفعل البيئة المصرية والطبيعة المصرية المتبسطة فى مساهلة وعذوبة تنفر من التعقيد .

كما ظهرت الحوادث المصرية وصورة البيئة المصرية التى فرضت على الشعراء عدم ذكر الأطلال والديار والرسوم .

وظهرت العاطفة الجياشة فى الشعر المصرى فأضفت على الأشعار المصرية قوة ترتاح النفوس إليها كأبيات المعلى الطائى فى أولاده التى غلبت على أبى تمام حين جمع مختاراته المعروفة بالحامسة فضمنها هذه المقطوعة التى تعبر عن كل أب:

جمعن من بعض الى بعض
فى الأرض ذات الطول والعرض
أكيادنا تمشى على الأرض...
أشفقت العين من الغمض

لولا بنيات كزغب القطا
لكان لى مضطرب واسع
وانما أولادنا بيننا
إن هبت الريح على بعضهم

أما الفكاهة فتتمثل فى قصة الشاعر الملقب بالجمل الأكبر مع أحمد بن المدبر:

كما بالمدح ينتجع الولاية
ومن جدواه دجلة والفرات
جوائزه عليهن الصلاة
عياالى إنما تغنى الزكاة
وعاقتنى الهموم الشاغللات
فتصبح لى الصلاة هى الصلات
ويصلح لى على هذا الممات

أردنا فى أبى حسن مديحا
فقالوا أكرم الثقلين طرا
وقالوا يقبل المدحات لكن
فقلت لهم وما تغنى صلاتى
فأما إذا أبى الإصلااتى
فيأمر لى بكسر الصاد منها
فيصلح لى على هذا حيااتى

لقد ظهر الشعر المصرى ظهورا واضحا فى القرن الثالث للهجرة وقد تكلم ابن خلكان عن شعراء مصر، والثعالبى .

ومن الشعراء من تأثر بالبيئة المصرية الخالصة كالشاعر كشاجم الذى كان كلما رحل عن مصر، عاد به الحنين .

ووفد أبو تمام على مصر طفلاً فروته من النيل وروته من الشعر. فأنشدها أول إنشاده كما يذهب بعض المؤرخين حتى ليعده الكندي وابن زولاق والسيوطي «مصرياً» ودعوه شاعر مصر الأكبر.

وهكذا، ينمى إلى مصر شعراء فحول بالمريى والتعليم بل إن شعراء مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبي كانوا فحول الشعر العربى فى الأقطار الإسلامية قاطبة. وفى هذه الآونة تصدرت مصر فى الأدب صدارتها فى العلوم والفنون.. والسياسة وكان ذلك منذ أواخر القرن الخامس للهجرة.

ويذكر الدكتور أسعد طلس من رجال مصر ما بين القرن السابع والقرن التاسع:

(ابن نباته المصرى (٧٦٨ هـ) وابن أبى حجلة (٧٧٦ هـ) وشمس الدين الهوارى (٧٨٠ هـ). وهؤلاء شعراء مجيدون خلفوا آثاراً تدل على سمو كعبهم فى الأدب المصرى الإسلامى. ومن الأدباء المصريين الفحول فى هذه الفترة الشهاب القلقشندى (٨٢١ هـ) والبدر الدمامينى (٨٢٧ هـ) والشمس النواجى (٨٥٩ هـ) والمؤرخ بيبوس المنصورى (٧٢٥ هـ) وابن منظور (٧١١ هـ) والشهاب النويرى (٧٣٢ هـ) وغيرهم.

وقد كان لهؤلاء الأئمة تلاميذ من الشاميين قصدوهم إلى ديار مصر وتعلموا عليهم فى الأزهر أو فى غيره من المعاهد المصرية، ولو رحنا نستقصى أسماء هؤلاء الطلاب لجنناك بسفر ضخم).

وصدارة مصر الفنية وثروة مصر المادية جذبت إليها الشعراء والكتاب والعلماء فانتجعوها مسحُرين. وترطببت ألسنتهم باسمها وترنم شعرهم بذكرها.

وحين كان شعراء العرب فى مصر يلتزمون «العمود» والبحور التقليدية، كان المصريون ينطلقون على سجيتهن المجنحة الرفافة، فالألفاظ رقيقة سهلة مضيئة، والبحور آثروا منها القصيرة التفاعيل، والقصائد الطويلة استبدلوها بالمقطعات. ولأمر ما سمي المصريون ذلك اللون الذى استحدثوه من الشعر الشعبى «البلايق». وهو اسم طائر مختلف ألوانه، شجى صوته، له تطريب. وذاع هذا اللون فى عصر المماليك وسامت فن الموشحات.

ومن الألوان المصرية فى الشعر العربى الأديرة. وقد وجد هذا اللون فى غير مصر حيث تنتثر الأديرة فتغنى البحترى بدير العاقول، وابن المعتز بدير السوسى. ولكن انتشارها كان بمصر ومن ثم كثر شعر الديارات بها.

ومن الألوان التي استحدثتها مصر في الشعر «فن رثاء الدول».. وهو كما يقول الدكتور كامل حسين (فن جديد كل الجدة في تاريخ الأدب العربي).

حقيقة وصف البحترى إيوان كسرى (ولكن شعراء مصر لم يستمدوا صورهم وعواطفهم من التاريخ بل شاهدوا الأحداث وسجلوها وعبروا عن مشاعرهم نحوها).

حتى مالم تستحدثه مصر طورته وتفننت فيه فن الإجازة مثلا أخضعته مصر لطبعها الحضارى فقسمته قسمين اجازة معاصر لمعاصر واجازة معاصر لقديم.. وجعلت له تقاليد خاصة لم يكن معروفا بها. واذ غدا فن الاجازة على يد مصر خلقا جديدا اطلقت عليه اسما من صنعها قسمته (التمليط).

ويبدو أن مصر عافت المدح يتصدر القصائد فاستحدثت القصائد الغزلية التي لا تبقى للمدح إلا نذرا من مقال أو مجال. وأطالت مصر هذه المقدمات لا أدري أسخرية من المدح والممدوح أم حبا في الغزل لمواءمته طبيعتها الرقيقة الدافئة.

على كل حال استحدثت مصر هذه الطريقة ثم كلفت بها كعادتها، وسمتها «الطريقة الغرامية». ولها في هذا الباب قصة قد يقرؤها المرء للحظتها ثم يعبرها ولكنها على عفويتها تؤيد معنى كبيرا وتعمق خطا ممتدا على سير التاريخ وعلى طول الزمن: هو نزوع مصر إلى السهولة وانطباعها على العذوبة والرقّة والأناقة الحضارية.

جاء في خزانة الأدب «لابن حجة الحموي» أن ابن سعيد المغربي خلال زيارته لمصر اجتمع بابن سناء الملك فسأله أن يرشده السبيل إلى الطريقة الغرامية هذه فوجهه البهاء زهير إلى قراءة بعض دواوين الشعراء على أن يراجع بعد ذلك، فغاب ابن سعيد مدة أكثر فيها من قراءة هذه الدواوين إلى أن حفظ أغلبها.

ثم اجتمع بعد ذلك بالبهاء زهير وتذاكرا في الغراميات. وفي غضون -حديثهما أنشد البهاء (يابان وادى الأجرع) وقال اشتهى أن يكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا ثم قال:

«سقيت غيث الأدمع».

فقال البهاء المصرى: هذا والله حسن ولكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول:

«هل ملت من طرب معي».

لقد كان ابن حجة يسمى مدرسة مصر فى التورية مدرسة (السحر الحلال) وقد لعبت هذه المدرسة دورا كبيرا فى شعر هذا العصر.

ولم تتكلم مصر العربية، بالمعنى الجامع، إلا منذ عدة قرون فإذا بها تستحدث فيها كل هذه الآثار... وتضع لها قاموسها الأكبر والأشهر والأصح ١١.. «لسان العرب الذى وضعه ابن منظور المصرى».

مصر فى الأدب الشعبى العربى:

لهذه الشخصية أكثر من أثر فى الأدب الشعبى وبعض هذه الآثار: الإنشاء، والإيواء، والتحرير، والتحوير، والتمصير، وإشاعة قيم جديدة، وتسوية نماذج جديدة أيضا.. حتى السير العربية الأصل، العربية الأبطال مصرها الشعب المصرى كملحمة بنى هلال إذ نقاها من تصرفات البداوة وموروثاتها ومواضعات حياتها كنظام الرياسة وبواعث الحروب.

هذب الشعب المصرى هذه السيرة وحضرها وارتفع بها فأبوزيد الذى لا يعدو أن يكون أحد فرسان القبيلة أصبح على يد مصر قائد جيش نظامى يعرف التحضير والتجهيز والتحصين والتعبئة. كما مد له المصريون فى الشجاعة حتى ليأتى بالخوارق فى بابها وفقا لمزاج مصر فى التهويل. وعلموه مختلف العلوم والفنون، واللغات وهى لمسة حضارية طبيعية من مصر. وجعلوه واسع الحيلة يعرف مداخل الأمور وخوارجها وكأنه «ابن بلده» -يفهمها وهى طائيرة- وانعكس هذا على الأمثال الشعبى المصرية التى تقول: (سكة أبوزيد كلها مسالك).

والحسن بن سرحان ارتفعوا به من أمير قبيلة إلى ملك الملوك ولكنهم قيده بالشمورى. فهو لا يبرم أمرا لاتراه الجماعة، كما جعلوه كريما واسع العطاء فى فيض -وكانه النيل- وجعلوه عادلا عفوا انعكاساً لرغبة النفس المصرية فى العدل والسماحة. وبهذا غدا الحسن بن سرحان بمجامع الصفات المصرية فيه، رمزا شعبيا حتى لنطلق على وجيه السميت والشارة، باذخ العطاء، «الفنجرى»: عامل أبو على.

وقد استحدث المصريون فى سيرة الهلالية: (ديوان مصر) من شعورهم بأنفسهم ووعيتهم لذاتيتهم.

وأشاعت مصر فى القصص الشعبى قصص الفكاهة كما أشاعت فيه الحياة الأسرية.. دفاء البيت.. وهذا اللون خاص بمصر فى ألف ليلة. فالحياة المصرية الخاصة هى وحدها المفصلة فى اللبالي. فمنذ يستقبل وليدنا الحياة تسجل اللبالي: ففرحة المولود،.. والسبوع، والنمو، والتربية، وممارسة الحياة، وزفة العرس، والزوج والزوجة، والأم، مادة خصبة فى الطبقة المصرية من ألف ليلة وليلة.

وأشاعت مصر فى القصص الشعبى كالهلالية والظاهر بيبرس وألف ليلة، فنها القديم «السحر». فالغزالة المسحورة تستدرج غريمها، واسمه دياب بن غانم والجن له ملوك وملكات تنشب بينهم وبين أبطال السير المعارك وكأنها العنف الذى يقابل الوداعة المصرية ويموج سطحها الأملس بدوامات الحزبية والهوى انتصارا لهذا الفريق أو ذاك تسلية فى بادئ الأمر، ثم حقيقة.

وإذ تم تمصير السيرة تهمسوا لها كالعادة حتى ليخلعون اسماءها على الأبناء ويرسمون صورها على الجدران بل الصدور.

بل إن الشعب المصرى «مفرط، الرياضات فى الملاحم الشعبية. فى سيرة الظاهر بيبرس لم تعد الرياسة وراثية كمشيخة القبيلة بل غدت بالانتخاب.. إنه نزوع مصر إلى الديمقراطية وكأنها تهتبل هذا اللون من الأدب لتبث فيه مثلها حتى ولو لم يسعد بها الواقع. وتمضى مصر تقعد القواعد وترسم الصور للمجتمع والأشخاص وتنقد ما يغير هذا لتؤكد ذاتيتها.

وحين سقطت بغداد فى يد هولاءكروأى القصص الشعبى إلى مصر.. إلى القاهرة فأضافت وحورت وسوت وصقلت كما فعلت فى «الهلالية» و«ألف ليلة وليلة»، فبثت فى الأولى عواطف واستحدثت فى الأخرى طبقتين أو لونين: اللون الأول طبقة «الشار» التى شاع فيها طلب العدل.. أما اللون الآخر فهو «وصف الآثار المصرية».

وقد أضافت بلاد أخرى إلى ألف ليلة، ولكن مصر هى التى بلورتها بعد أن اعطتها إضافات هامة ثم صبتها فى القالب الأخير الذى تعرف به بعد أن لمسها القاص الشعبى المصرى اللمسات الأخيرة.

رد القصص الموضوع فى مصر إلى أصول فى الأدب الفرعونى فقصة على الزبيق -يردها نولدكه إلى القصة المصرية القديمة كنزرامبسينت. وقصة القرد الكاتب يلح فيها شبيجلبرج توت المصرى القديم الذى يصور فى صورة قرد.

وبعد صنع مصر هذا أخذت «ألف ليلة» طريقها إلى أوروبا بالنقل والترجمة بما تحمل من طابع مصر ممثلاً في حكمة النصيحة واصطناع الصبر والأناة وما إلى هذا من مظاهر السلوك والعمل الذى تضرب جذوره كنباتنا فى بيئتنا الزراعية. وفى الكتاب من مصر من حيث الشكل، ظاهرة التكرار وكأنه يحاكي الفن المصرى الإسلامى فى تكرار الأجزاء والوحدات الكاملة. والمزاج المصرى يرتاح إلى التكرار بما فيه من الطبيعة المصرية.

حتى أولياء الله يتخذون مصر مقراً ومقاماً، وحين تقوم مصر بدورها القيادى فى المنطقة على مسرح الأحداث الكبرى، يؤكد هؤلاء الأولياء دورها الكبير بما قر فى نفوس الجماهير من إيمان مسلم به بالغيبات والكرامات إيماناً يؤيده الأدب الشعبى الذى يجعل من شخصيات الأولياء قوى غيبية تتدخل فى كثير من المواقف تدخلاً مباشراً. ففي قصة الظاهر بيبرس نجد السيدة نفيسة تجمع بينه وبين عثمان بن الحبل ويتصافيان فى رحابها وبين جنات جامعها، كما نجد المغاورى يجمع بين الظاهر بيبرس وجمال الدين شичه، ثم يجمعهما بالقائد البحرى محمد فارس البطريق المغربى. أما السيدة زينب فى القصة فهى روح.. ونفحات تلهم النصر وتدنيه بما تجمع من صفوف وتضم من شتات وتوثق من روابط.. روح تبارك المواقف وتسعدها.

وهكذا صبغت مصر قصة سيف بن ذى يزن بالأساطير القديمة عن النيل.

ومن عمل الشخصية المصرية فى الأدب الشعبى آثار مصر فى فن:
«خيال الظل».

إن ابن دانيال أعظم المبرزين فى فن خيال الظل لم يستقم فنه إلا بعد أن أوى إلى مصر عندما دهم التتار بلدة الموصل. ومع تبريزه وتقويه لم يقو على فرض تمثلياته على مصر أو يحمل فنانيها على أدائها وعرضها بل التقطت مصر هذا الفن ومارسته بطريقتها هى فأخملت ابن دانيال حسين عفت فصفت تمثلياتها من المجون والاقذاع واتسمت كدأبها فى فنون الأدب بالفكاهة والنقد.. بل عمدت مصر إلى بث الحياة المصرية فى هذا اللون من الفنون الشعبية وقبسته بعضاً من تاريخها وفرضت عليه أماكنها وصور العيش فيها.. إمعاناً منها فى ربطه بعجلتها.. فى تمصيره.

وراحت مصر بعد هذا تغاير فى التقاليد التى وضعها ابن دانيال فوضعت تقاليد فنية جديدة فى الاستهلال والختام فكانت تمثلياتها «لعبة التمساح» و«لعبة المنار» اللتان عثر

عليهما المستشرق (بول كاله) فيما عثر عليه من مخطوطات القاهرة سنة ١٩٠٩، طبقة أخرى غير ابن دانيال حتى لتعد الدراسة المتخصصة، التمثيلية المصرية (حرب العجم، أو لعبة المنار.. من أروع ما خلفه خيال الظل.

وفي هذه التمثيلية وحدها دلالة كبيرة على شخصية مصر وعملها ونزوعها إلى الفن وإلى الجد والتجميع والكفاح والظفر بالنظر والتغنى به غناء يغرى ويشحذ العزائم للجهاد فى الحروب الصليبية التى أخذت مصر فيها دورا طليعيا قياديا من حيث الفن الحربى والتبعات. هذا حين نجد ابن دانيال الذى يقرن به فن «خيال الظل، يخدمه - وفى العصر نفسه والظروف عينها تخديما متواضعا فيعرض كما يقول الدكتور عبد الحميد يونس (لمناقرة الديكة وتناطح الخراف ومصارعة الثيران ويستعرض الانحراف الأخلاقى ويسخر ببعض الاوضاع).

ولقد بدت خصوصية مصر وصقلها فى أسلوب التمثيليتين فقد كان أسلوبا فنيا راقيا يعتمد على التصوير والأدب معا ويجعلهما صالحتين للعرض أمام الخاصة المتقفة والعامه على السواء.

ولقد دخلت التمثيليتان بما وفرت لهما مصر، الفن الشعبى، حين اخرجت منه الدراسة المتخصصة بابات ابن دانيال على شهرتها.

وعن مصر أخذت تركيا فن خيال الظل وتأثرت بها فاستعارته اليونان. وعن مصر أخذه الشمال الأفريقى.. وعن مصر أيضا انتقل إلى شمال حوض البحر الأبيض المتوسط. وهناك فنون من الأدب الشعبى وعلى التحديد من الشعر الشعبى، نشأت فى غير مصر مثل «القوما» و«كان كان» ثم لمحتها مصر وادخلتها بوتقتها فانجلت حتى لتتروغ ابن خلدون حين يتحدث عن هذه الفنون فيقرر أن (أهل مصر القاهرة أتوا فيها بالفرائب وتبحروا فيها فى أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاءوا بالعجائب).

ومثل هذا فعلته مصر بالموشحات التى اقترنت باسماء شعراء مصريين بالأصل أو المولد أو المريبى... بل ان الشاعر المصرى ابن سناء الملك هو الذى ألف فى فن التوشيح كتاب «دار الطراز فى عمل الموشحات».

وزكى شاعرنا، الصفدى فى كتابه «توشيح التوشيح» كما زكاه صاحب كتاب «المقتطف من أزاهر الطرف، الذى نقل عنه ابن خلدون موشحه ابن سناء الملك التى

طارت شهرتها شرقا وغربا: (حبيبي ارفع حجاب النور عن العذار) وان كان هذا لم يحل دون نقد الدكتور الأهواني له في كتابه: «ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر».

ويسلمنا الحديث عن الموشحات إلى ألوان من الأدب الشعبي كان لمصر ذوق خاص فيها كالموال.

نشأ الموال في بغداد ولكنه تفتح وازدهر في مصر.

فقد استحدثت مصر في فن الموال من الناحية الفنية «السجع المشطر» فنظمت لأول مرة «البسيط» مجزؤا متصرفة في عدد أغصان الموال. ومضت تتصرف في عدد شطرات الموال، وفي القافية، وتنوع في الوزن دون أن تخرج على البحر. ويتمثل صنيعها، وهذا في الموال الذي استشهد به ابن خلدون في مقدمته.

والدمــــــــــــــــــــــا تنضح	هذي جــــــــــــــــــــراحي طريا
في الفــــــــــــــــــــلا يمرح	وقــــــــــــــــــــاتلي يا أخيــــــــــــــــا
قلت دا أقــــــــــــــــــــبح	قالوا وتأخذ بتــــــــــــــــــــارك

وبرعت مصر في فن الموال حتى تطعمت به أمثالها الشعبية.

واستخرجت مصر من البحر البسيط بقدرتها على اللعب الفني، صورا عدة للموال من حيث التنسيق والقافية. فالموال الأعرج والموال النعماني وهو من تخريج أهل الصعيد ومواويل «الفرش والغطاء» التي ينشدها المغنون على طريقة «الموال النعماني» بل بلغ الصعابدة بفن الموال مبلغا ينظمون معه المواويل ارتجالا على البديهة في سرعة ولماحية وشفافية أيضا. وهم يسمون عملهم هذا أو فنهم هذا: «الرمي» وهم حين «يرمون» فإنما يتناولون جوانب الحياة كلها فيكون موضوعهم سياسيا أو اجتماعيا أو وطنيا أو فكاهيا أو اقتصاديا. وفي كل الحالات نجد الحكمة ماثلة والحادثة مسرودة، والمعنى الغريب مقتنعا في براعة وحذق، والصياغة بعد هذا لاهي بالمكروه ولا بالمستهجنة.

وفي مجال الابتكار في صياغة الموال يأتي بئر المصور بالمعجب فيجزئ الأشرط ويغايير بينها في الطول ويخدم مع القافية الأصلية قافية داخلية وينوع في وزن الموال ويقفى أشطره.